على هامش النقد :

« دفاع عن البلاغة »

تأليف الأستاذ الزيات

للأستاذ سيد قطب

— ١ —

شغلتني الشواغل عن قراءة هذا الكتاب عند ظهوره ، اعتمادا على أنني قرأت معظم فصوله منشورة في « الرسالة » ... فلما عدت إليه في هذه الأيام ، وأنا أستعرض كتب النقد الحديث في المكتبة العربية عامة ، وجدت أنني كنت مخطئا في اعتمادي على ما قرأته فصولا في الرسالة . فقراءة هذه الفصول شيء ، وقراءة كتاب كامل في موضوع معين شيء آخر . ووجدت أن القضية التي يعرضها الكتاب جديرة بأن تطول حولها الشروح والتعليقات ، والمناقشات ، في هذا الأوان بالذات .

فللمرة الأولى بعد كتابَيْ « عبد القاهر » في القرن الرابع الهجري ، تعرض قضية البلاغة على بساط البحث في هذا المحيط الشامل ، وتناقش بوصفها وحدة في بحث مستقل ، لا في صدد دراسة لكاتب أو كتاب[1] .

ونحن قد نخالف الأستاذ في الكثير من قضايا هذا الكتاب كما نوافقه على أسس معينة لهذا البحث . ولكن هذا كله شيء آخر لا يمس القيمة الذاتية للكتاب في المكتبة العربية بوصفه أول علاج شامل لقضية البلاغة بعد كتابي عبد القاهر . لا يقف فيه مؤلفه عند الأدب العربي وحده ، بل يسترشد كذلك بالنقاد الفرنسيين ، وبتطور المذاهب الأدبية هناك ، كما يسترشد بالنقاد العرب ، وتطور الأساليب في العصر الحديث .

وعنوان الكتاب قد يدل على موضوعه دلالة كافية « دفاع عن البلاغة » والأستاذ الزيات أولى الكتاب المعاصرين بالدفاع عن البلاغة . فهو صاحب « مذهب التنسيق التعبيري » كما وضعت له عنوانه في كتابي القادم : « المذاهب الفنية المعاصرة » . ذلك المذهب المتفرع عن النفلوطي ، صاحب « مذهب الابتداع التعبيري » . والذي يجعل للتعبير وتنسيقه أهمية كبرى في الفن بل الذي يجعل الفن هو أساس هذا « التنسيق التعبيري » .

* * *

نحن نتفق مع الأستاذ في أساس القضية ، وهو أن العمل الفني في الأدب لا يوصف بالجودة إلا أن يتهيأ للفكرة الجيدة ، أو الإحساس الجيد ، أسلوبا جيدا ، وعبارة جيدة . وأن التعبير ليس نافلة في العمل الفني في الأدب ، وأنه لا يفسد ويرك ويتعقد ثم تبقى لهذا العمل قيمته الفنية .

« فالفكرة والصورة في الأسلوب كل لا يتجزأ ، ووحدة لا تتعدد . وليس أدل على اتحادهما من أنك إذا غيرت في الصورة تغيرت الفكرة ، وإذا غيرت في الفكرة تغيرت الصورة . فقولك : أعنيك ، غير قولك : إياك أعني . وقولك : كل ذلك لم يكن ، غير قولك : لم يكن كل ذلك . وقولك : ما شاعر إلا فلان ، غير قولك : ما فلان إلا شاعر . فترتيب الألفاظ في النطق لا يكون إلا بترتيب المعاني في الذهن ... ص ٦٠

« من ذلك نرى أن الأسلوب خلق مستمر : خلق الألفاظ بواسطة المعاني ، وخلق المعاني بواسطة الألفاظ . ومن ذلك أن الأسلوب ليس هو المعنى وحده ، ولا اللفظ وحده ، وإنما هو مركب فني من عناصر مختلفة ، يستمدها الفنان من ذهنه ومن نفسه ومن ذوقه . تلك العناصر هي الأفكار والصور والعواطف ثم الألفاظ المركبة ، والمحسنات المختلفة . والمراد بالصورة إبراز المعنى العقلي أو الحسي في صورة محسة . وبالعاطفة تحريك النفس لتميل إلى المعنى المعبر عنه أو لتنفر منه » . ص ٦٢

أوافق الأستاذ على هذا الأساس الذي عبرت عنه على طريقتي في كتاب « التصوير الفني في القرآن » والذي سبقنا إليه الإمام عبد القاهر فعبر عنه على طريقته في كتابه « دلائل الإعجاز » .

ولقد قررت هذه الحقيقة هناك بهذه الفقرات :

« وبعض الناس حين ينظر في هذه الموضوعات (موضوعات القرآن) ويرى ما فيها من دقة وعظمة ، وصلاحية ومرونة ،

(١) يقال : إن هذه القضية عرضت في كلية الآداب بالجمعة المصرية وأنا لا أدري كيف عرضت هناك ولا في أي محيط عرضت . وأحسب أن الناس كذلك لا يدرون شيئا عن هذه المحاولة الموضعية .

وإحاطة وشمول ، يحسبها ميزة القرآن الكبرى ، ويحسب أن طريقة التعبير القرآنية تابعة لها ، وأن الإعجاز كله كامن فيها ، كما أن بعضهم يفرق بين المعانى وطريقة الأداء ، ويتحدث عن إعجاز القرآن فى كل منهما على انفراد .

« أما نحن فنريد أن نقول : إن الطريقة التى اتبعها القرآن فى التعبير ، هى التى أبرزت هذه الأغراض والموضوعات ، فهى كفاء هذه الأغراض والموضوعات .

« ولا يردنا هذا إلى تلك المباحث العقيمة حول اللفظ والمعنى وقد استغرقت من النقاد العرب ما استغرقت منذ أثارها الجاحظ فزعم أن المعانى ملقاة على قارعة الطريق ، ثم تابعه فى البحث ابن قتيبة وقدامة وأبو هلال العسكرى وغيرهم مخالفين ومؤيدين . وإنا لنحسب أن « عبد القاهر » قد وصل فيها إلى رأى حاسم حين انتهى إلى أن اللفظ وحده لا يتصور عاقل أن يدور حوله بحث من حيث هو لفظ ، إنما من حيث دلالته يدور البحث فيه ؛ وأن المعنى وحده لا يتصور عاقل أن يدور حوله بحث من حيث هو خاطر فى الضمير ، إنما من حيث أنه ممثل فى لفظ يدور البحث فيه . وأن المعنى مقيد فى تحديده بالنظم الذى يؤدى به ، فلا يمكن أن يختلف النظمان ثم يتحد المعنى تمام الإتحاد .

« لم يصغ « عبد القاهر » القضية هذه الصياغة المختصرة ، فنحن نترجم عنه ، وإلا فقد استغرق فيها كتابا لا نستطيع نقله هنا ، ولكن له فضله العظيم فى تقرير هذه القضية ، ولو خطا خطوة واحدة فى التعبير الحاسم عنها لبلغ الذروة فى النقد الفنى . فنحن نقول عنه : إن طريقة الأداء حاسمة فى تصوير المعنى ، وإنه حيثما اختلفت طريقتان للتعبير عن المعنى الواحد ، اختلفت صورتا هذا المعنى فى النفس والذهن . وبذلك تربط المعانى وطرق الأداء ربطا لا يجوز الحديث بعده عن المعانى والألفاظ كل على انفراد ، فلن يبرز المعنى الواحد إلا فى صورة واحدة ؛ فاذا تغيرت الصورة تغير المعنى بمقدارها . وقد لا يتأثر المعنى العام فى ذاته ، ولكن صورته فى النفس والذهن تتغير . وهى المعول عليها فى الفن — إذ التعبير فى الفن للتأثير — فاذا اختلف الأثر الناشىء عنه فالمعنى المنقول مختلف بلا مراء » . ص ١٩٠

ويرتب الأستاذ الزيات على هذه الحقيقة نتائجها الطبيعية التى رتبها عليها بعض النقاد فى الشرق والغرب ، ولكن فى شىء من الحماسة قد يجاوز القصد . قال فى ص ٦٦

« وقد غالى علماؤنا البيانيون ، فزعموا أن المعانى شائعة مبذولة لا يملكها المبتكر ولا السابق ، وإنما يملكها من يحسن التعبير عنها ، فمن أخذ معنى بلفظه كان سارقا ، ومن أخذه ببعض لفظه كان له سالخاً ، ومن أخذه فكساه لفظا أجود من لفظه كان هو أولى به ممن تقدمه[1] .

« على أن هذا الرأى الجرىء لم يكن من رأى العرب وحدهم وإنما يراه معهم (بوفون) وأشياعه من كتاب الفرنج ؛ فقد قرر فى خطبته عن « الأسلوب » التى ألقاها يوم دخل الأكاديمية الفرنسية : إن الأفكار والحوادث والمكتشفات شركة بين الناس ، ولكن الأسلوب من الرجل نفسه .

« نعم قال (بوفون) : إن الأسلوب من الرجل نفسه ، ولم يقل : إن الأسلوب هو الرجل ، كما شاع ذلك على الألسنة . ولم يرد بما قال ، إن الأسلوب ينم عن خلق الكاتب ، ويكشف عن طبعه كما فهم أكثر الناس ؛ وإنما أراد أن الأسلوب ، ويعنى به النظام والحركة المودعين فى الأفكار ، هو طابع الكاتب وإمضاؤه على الفكرة ؛ ومعنى ذلك أن الأفكار تكون قبل أن يفرغها الفنان فى قالبه الخاص ، من الأملاك العامة ؛ فاذا عرف كيف يصوغها على الصورة اللازمة الملائمة تصبح ملكا خالصا له ، تسير فى الناس موسومة بوسمه ، وتعيش فى الحياة مقرونة باسمه ، فالأسلوب وحده هو الذى يملك الأفكار وإن كانت لغيرك . ألا ترى أن أثر الأخلاق فى بقاء الأمم وفنائها معنى من المعانى المأثورة المطروقة ، فلما أجاد شوقى سبك اللفظ عليه فى بيته المشهور :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

أصبح بهذه الصيغة من حسناته المعدودة ، وأبياته المروية ! »

ونحن — على اتفاقنا مع الأستاذ فى المبدأ السابق — نختلف معه هنا كما نختلف مع الجاحظ صاحب نظرية المعانى الملقاة على قارعة الطريق .

فإن كون العمل الفنى يتألف من المعنى والصورة ، بحيث

(١) الصناعتين ص ١٤٦ .

لا يمكن الفصل بينهما . لا يقتضى أن تكون الصورة وحدها هى العمل الفنى الذى يثبت ملكيته لمن يجيده ، ولا يقتضى كذلك أن تكون جودة الصياغة كفيلة برفع المعنى إلى مرتبة الجودة ، كما جاء فى بحث الأستاذ فى مكان آخر حيث يقول فى ص ٧٣ :

« إذا حلى فى صدرك بعد ذلك أن تذهب إلى ما ذهبت إليه من أن تجويد الأسلوب يتضمن تجويد الفكرة ويضمن خلودها فدعك من أولئك الذين عادوا الكمال الفنى بطبائعهم .. الخ »

أو حيث يقول فى ص ٢٦ :

« وليس أدل على أن الشأن الأول فى البلاغة إنما هو لرونق اللفظ وبراعة التركيب ، من أن المعنى المبذول أو الرذول أو التافه قد يتسم بالجمال ، ويظفر بالخلود ، إذا جاد سبكه وحسن معرضه . ولا بأس أن أقدم إليك مثلا من آلاف الأمثلة ، بلغ معناه الغاية فى السوقية والفحش ، ومع ذلك تحب أن تسمعه وتحفظه وتعيده لأنه بلغ من سر الصناعة غاية تطلع دونها أكثر الأقلام .

« قال أبو العيناء الأعمى لابن ثوابة : بلغنى ما خاطبت به أبا الصقر ، وما منعه من استقصاء الجواب إلا أنه لم ير عرضا فيمضغه ، ولا مجدا فيهدمه .

« فقال له ابن ثوابة : ما أنت والكلام يا مكدى[1] ؟

« فقال أبو العيناء : لا ينكر على ابن ثمانين سنة ، قد ذهب بصره ، وجفاه سلطانه ، أن يعوّل على إخوانه ، ثم رماه بمعنى فاحش مكشوف . فقال ابن ثوابه :

« الساعة آمر أحد غلمانى بك .

فقال أبو العيناء :

« أيهما ؟ آلذى إذا خلوت ركب ، أم الذى إذا ركبت خلا ؟ »

فانظر فى هذه الجملة الأخيرة ترمى ابن ثوابة فى نفسه وفى زوجه ، وهما معنيان سوقيان يترددان كل ساعة على ألسنة السابين من أوشاب العامة . وإنك مع ذلك تقف من هذه الجملة موقف المشدوه المعجب ، تحركها لسانك ، وتعمل فيها فكرك ، وتعرضها على مقاييس البلاغة وشروطها ، فتطول على كل قياس وتزيد على كل شرط » .

(١) المكدى : من يسأل الناس .

إلى أن يقول فى ص ٢٨ :

« فأنت ترى أن الصياغة وحدها هى التى سمت بهذه المعانى الحسيسة إلى أفق البلاغة فتداولتها الألسن ، وتناقلتها الكتب . وليس حال المعنى فى ذلك حال اللفظ ، فإن اللفظ فى ذاته كالموسيقى يخلب الأذن ، ويلذ الشعور وإن لم يترجم . أما المعنى فكالكهرباء ، إذا لم يكن لفظه جيد التوصيل ، انقطع تياره ، فلا يعرب ولا يطرب . اقرأ قول القائل :

لما أطعنا كم فى سخط خالقنا لاشك سلّ علينا سيف نقمته

« ثم وازن معناه الشريف ونسجه السخيف ، بما رويت لك من كلام أبى العيناء ، فلا يسعك إلا أن تقول كما أقول :

« إن القذر يوضع فى آنية الذهب فيقبل ويحمل ، وإن المسك يوضع فى تالجة الطين فيرفض ويهمل »

ونريد نحن أن نقف عند الحقيقة الأولى التى اتفقت فيها مع الأستاذ كل الاتفاق ، فتجاوزها قد يوقع فى الزلل

والسبيل الأقوم فى هذا المجال أن نقول :

إن العمل الفنى لا يكون بالفكرة الجيدة المبتكرة وحدها ، ولا بالإحساس الصادق الجميل وحده ، إنما يتم بالصورة الجميلة التى يبرز فيها المعنى والإحساس

أما الصورة وحدها ، فلا تستطيع أن تخلق فناً إنسانياً خالداً إذا خلا من الإحساس الجميل الصادق ، ومن الفكرة العميقة المبتكرة ، ومن التصور الفذ الخاص ، هذه العناصر التى يجب أن يحسب لها حسابها فى كل فن يراد له السمو أو الخلود

وأقصى ما تصل إليه الصياغة أن ترفع المعنى أو الإحساس فى صورة عنه فى صورة أخرى ، ولكنها لا ترفع بذاتها عملا فنياً على عمل فنى آخر ، إذا ارتفعت فى الأول مع سفول معانيه ، وانخفضت فى الثانى مع ارتفاع قيمته

إنها تصلح مقياساً حين تتحد الفكرة أو المعنى العام ثم تختلف الصورة ، ولكنها لا تصلح للقياس الدقيق حين يكون هناك فكرتان أو معنيان يختلفان فى قيمتهما الإنسانية والشعورية

وهذه كلمة أبى العيناء ، إنها ستبقى — على براعة صياغتها — مجرد نكتة لاذعة ، لا تتسامى إلى الآفاق الشعورية فى الفن العالى ، وكذلك سيبقى بيت « شوقى » حكمة مكرورة شائعة ، ولكنها

لا تسلك فى مستوى الحكمة النابعة من طبع ذى خصوصية وامتياز . أما البيت الذى استشهد به الأستاذ على ما تصنعه الركة بالمعنى العالى ، فهو صالح كذلك للاستشهاد به على سوقية التفكير، إذ لا خصوصية ولا ارتفاع عن تفكير العوام

والخصوصية فى الأحاسيس والمشاعر والأفكار شىء ثابت ، وله قيمته التى لا تنكر ، وهى مناط الأصالة فى الفن ، وكل ما نريده هو القول بأن هذه الخصوصية لا تبدو كاملة إلا فى صورة جيدة الصياغة ، وفى أصالة أسلوب وتعبير تكافئ أصالة الشعور والتفكير ، وإلا بقيت مطموسة ناقصة لا تبدو فى جلالها الكامل، ولا ترقى إلى الآفاق العالية فى الفنون

وقد تحدث الأستاذ عن الأصالة والخصوصية فى الأسلوب حديثاً فى غاية الجودة والصحة حين قال فى ص ٨٢ :

« يراد بالأصالة فى الأسلوب بناؤه على ركنين أساسيين من خصوصية اللفظ وطرافة العبارة ، وتلك هى الصفة الجوهرية للأسلوب البليغ ، والسمة المميزة للكاتب الحق . وملاك الأصالة ألا تكتب كما يكتب الناس ، ملاكها أن تكون أصيلا فى نظرتك وكلمتك وفكرتك وصورتك ولهجتك ، فلا تستعمل لفظاً عاماً ، ولا تعبيراً محفوظاً ، ولا استعارة مشاعة . ولعلك قرأت فيما قرأت كلاماً يرضى اللغويين ويعجب النحاة ، ولكنه مضطرب الدلالة ، مختلط الألوان ، تفه المذاق ، لا تستقله روح ، ولا تمثله صورة . ذلك هو الأسلوب الذى صدر عن الذاكرة ، ولم يصدر عن الذهن ، ونقل عن الناس ولم ينقل عن النفس ، وعبر بالجمل لا بالكلمات ، وأبان بالتقريب لا بالدقة ، وصور بالسوق المبتذل لا بالأصيل المبتكر »

وكان من حق الأصالة فى الشعور والتفكير أن تنال من الأستاذ ما نالته الأصالة فى الأسلوب والتعبير ، فالمعانى والأحاسيس ليست شائعة ملقاة على جانب الطريق ، وإلا فأين تذهب الطبائع الأصيلة الممتازة التى ترى الدنيا والأشياء بعين خاصة ، فإذا هى تعيش فى كون خاص بها من صنع أحاسيسها وتفكيرها ؟

تلك فلتة من فلتات الحماسة للبلاغة من صاحب « دفاع عن البلاغة » يرد بها الغلو فى إنكار قيمة التعبير ، فيجعل المزية كلها للتعبير

على أن الأستاذ يعود فيضع الأمر فى نصابه إلى حد كبير فى ص ٧٨ حين يقول :

« خلص لنا من تمحيص هذه الأحاديث أن الأسلوب الفنى يتكون من الصورة والفكرة ، كما يتكون الماء القراح من الهدروجين والأكسيجين . وكما استحال فى فن الطبيعة أن يتكون الماء من أحد عنصريه ، فقد استحال فى فن الإنسان أن يتكون الأسلوب من أحد جزأيه . ولا أقصد وجه الشبه بين الأسلوب والماء على أن تركب هذا وذاك من عنصرين ضربة لازب ؛ إنما أمدُّ الشَّبه إلى أن نسبة الصورة إلى الفكرة فى الأسلوب يجب أن تكون كنسبة الهيدروجين إلى الأكسيجين فى الماء ! وإذن لا بد من الأساليب الفنية تلك المعانى الحكيمة التى تعرض فى معرض بشع من الركاكة والغثاثة والتعقيد والخطأ ، ولا تلك الصور المموهة التى تنتفخ انتفاخ الفقاقيع، وتبرق بريق الشرر ، ثم لا يكون من ورائها غير فراغ وظلمة »

ففى هذا التقرير قصد ودقة تعود بنا إلى الحقيقة الأولى التى اتفقنا عليها ، وتحسب لكل من الفكرة والصورة حسابها الصحيح للكلام بقية

سيد قطب

الأستاذ صلاح الدين المنجد يقدم كتابه الجديد :

الظرفاء والشحاذون فى العصر العباسي

وهو كتاب طريف لطيف ممتع

لا تستطيع أن تتركه حتى تقرأه كله

وقد طبع فى « مطبعة الرسالة » طبعا متقنا

يطلب من دار « الرسالة »

ومن المكاتب الشهيرة وثمنه ١٢ قرشاً غير أجرة البريد